الحرب العراقية الإيرانية وفلسطين والعروبة والاسلام

د. سيد نوفل

تعليق

غدا تحتفل مصر بيومها الخالد على الزمان : ذكرى حرب أكتوبر المجيدة أو العبور العظيم . . ومنذ أيام قلائل ، وحسب التقويم العبرى ، استخلصت إسرائيل عبرة ما أسمته التقصير فى هذه الحرب . وتحدث رئيس أركان القوات المسلحة الإسرائيلية : الجنرال رفائيل إيتان . فتورط فى السياسة توريطا أنكره حزب العمل الإسرائيلى المعارض ، ونبه إلى ضرورة المباعدة بين المواقف الحزبية وبين الجيش ورئيس أركانه ، وأنه ليس من حق رئيس الأركان أن يؤيد سياسة حكومة يبجين فى الاحتلال والاستيطان للضفة الغربية وغزة ، أو يهودا والسامرة كما يحلو للتطرف الإسرائيلى أن يعيش فى الماضى السحيق . . . واستوقف النظر فى حديث رئيس الأركان الإسرائيلى مأأبداه من قلق لالتزام مصر الدفاعى نحو شقيقاتها العربيات ، وتوجسه خيفة من هذا الالتزام . وتعبيره الطريف عن هذا التوجس .

فقد قال إنه ينام بعين واحدة حين ينام ، ولايغمض عينيه معا . . فهو يقظان نائم ، كما يقول شاعرنا العربى الفصيح :

ينام بإحدى مقلتيه ويتقى
بأخرى المنايا فهو يقظان نائم ! !

وفى اليوم التاسع للحرب العراقية الإيرانية ، تحدث وزير الدفاع المصرى : الفريق أحمد بدوى فقال إن مصر سوف تدافع عن أية دولة عربية تتعرض للعدوان . وهى لذلك تتابع فى يقظة مواقف القوى الأجنبية وأنشطتها التى تهدد أمنها القومى . وسوف تقدم التسهيلات العسكرية للولايات المتحدة الأمريكية دفاعا عن هؤلاء الأشقاء . .

وما قاله رئيس الأركان المصرى منذ أربعة أيام إنما هو تأكيد لما أعلنه الرئيس السادات منذ تراكمت المخاطر على الشرق الأوسط عامة ، وعلى إيران وأفغانستان ومنطقة الخليج العربية خاصة . . ولم تنته عن هذا الالتزام حرب العداء التى شنها الاتحاد السوفيتى على مصر طيلة فى تحقيق أهدافه ، ولا الأدوات العربية التى سخرت خدمة هذه المطامع . . وبلغت مسيرتها قمة العداء والتحدى لروابط القومية والشرعية الدولية فى اجتماع طرابلس ليليا فى بداية ديسمبر ١٩٧٧ . . واستخدمت قضية فلسطين المقترى عليها ستارا لأهدافها الخافية للمصالح الفلسطينية والعربية والإسلامية جميعا . .

وفى اليوم التاسع للحرب العراقية الايرانية ذاته ، يزر أمراء جديران بالعناية العربية . فقد أكدا الدور القيادى المصرى فى المبادرة إلى مواجهة احتمالات المخاطر والتصدى لها . ودعوة الأشقاء العرب والإخوة المسلمين إلى التضامن الصادق المستنير فى دعمها .

والأول هو ما أذيع عن أن وفد الحزب البعثى الحاكم فى سورية برعاية حافظ الأسد ، يحضر مؤتمر الشعب العام فى الجماهيرية الليبية برعاية العقيد معمر القذافى . وقالت وكالة أنباء الحكومة السورية البعثية : إن مؤتمر الشعب العام سيطن فى دورة انعقاده مواقفه على الصعيد القطرية للوحدة الاندماجية بين ليبيا وسورية . ويذكر أن المؤتمر بدأ الانعقاد فى ٢٨ أيلول (سبتمبر) فى ذكرى انفصال سورية عن مصر ووفاة الرئيس جمال عبد الناصر . . !

وكأنما كتب علينا نحن العرب الابتلاء بعملاء من بيننا يوقعون وسط النيران المشتعلة فى بلادهم ويستهترون بكل عقل وفهم . . فأى الصلة بين الانفصال والوحدة ؟ ! وكيف يحتفل السوريون البعثيون بذكرى وفاة عبد الناصر وهم الذين اعلنوا عليه الحرب الشعواء ، ورموه بما يرمى به اليهود هتلر من ألوان الإبادة والتعذيب والبطش بمعارضيه . وسجلته صفحات الاجتماعات العربية السوداء فى « شتورة » بلبنان فى أغسطس (آب) ١٩٦٣ ! !

□ □ ويكمل هذا النبأ ويوضحه ما أذيع فى موسكو من بيان مشترك صدر عقب المحادثات التى أجراها وفد مؤتمر الشعب العربى والحكومة السوفيتية . وهى محادثات لم يسبق لها مثيل بين حكومة ووفد عربى يضم تنظيمات وأحزابا يسارية عربية كما تقول وكالة الأنباء الفرنسية والليبية معا . . .

وقد ختم البيان القريد بأن « الجانبين قدرا تقديرا عاليا دور الجبهة القومية للصمود والتصدى فى المنطقة العربية . وأشار الجانبان إلى أهمية توسيع وحدة القوى العربية القومية والتقدمية المعادية للإمبريالية على أساس النضال ضد الإمبريالية والصهيونية والرجعية . . »

وإذن فحرب القذافى والأسد وعلى ناصر ، بزعامة الاتحاد السوفيتى موجهة إلى أمريكا وإسرائيل وإلى الدول العربية التى تسميها معتدلة ويسمونها رجعية . وهى الدول ذاتها التى استغلها الرافضون والمتشعون ، ولم يبق من شبهة فى وجوب تحررها الفورى من هذا الاستغلال .

والأمر الآخر الذى وقع فى اليوم التاسع من الحرب الإيرانية العراقية ، هو التعاون الدفاعى الأمريكى السعودى بناء على طلب المملكة العربية السعودية . فقد أعلن فى الولايات المتحدة الأمريكية أنها قررت تزويد المملكة ، بناء على طلبها ، بطائرات متقدمة للمراقبة والإنذار ، تدار بأجهزة وأطقم أمريكية ، وتبين الخطر الواقد على بعد ٣٠٠ كم من جميع الجهات قبل قدومه .

وهنا يبدو مرة أخرى صواب التوجيهات المصرية المتكررة ، والاستعداد لمواجهة الخطر بوسائل رادعة . وتنمية التعاون العربى الذى يعتبر القوة الأساسية فى هذا المجال ، ووجوب التعاون الدولى فى عصر الاعتماد المتبادل بين الدول . . وهنا تتأكد أيضا حكمة السياسة المصرية ودورها المتقدم الرائد ، حين نبهت وألحت على دعوة السلام العادل الشامل ودعت جميع الأطراف المعنية إلى التضامن معها فى مسيرته ، قاعدة لأمن المنطقة وكفالة للمصالح المشتركة ، ورصدا للمخاطر المتصاعدة . .

والحق أنه لامناص من الاعتراف بأن التجارة الرائفة الداخلية والخارجية قد مثبت بها القضيان اللتان تسميهما قضية المصير العربى ، وتكتلت ضدها قوى مختلطة من أعلها الفلسطينيين وأصحابها العرب وأنصارها المسلمين وأعدائها فى الشرق والغرب . . وحاربوهما تحت شعار الدفاع عنها . .

□ □ ومنذ أسبوعين ضحكنا ملء وضحك العالم إشفاقا أو شماتة من الوحدة السورية الليبية : العربية اسما السوفيتية معنى . وأضحنا نحن العرب أوقاتا فى التأييد لها أو الهجوم عليها . مع اتفاقنا الإجماعى على حزبيتها وهوانها ، وكان المتعين أن تمر بفورها مر الكرام .

وفى أعقابها نشبت الحرب العراقية الإيرانية ، بعد اشتباكات وصراعات اتصلت نحو عام ، ونجحت منذ ابتليت إيران والعالمان العربى والإسلامى بثورة الخمينى . . تلك الثورة التى انضمت إلى معسكر الرافضين العرب ، وحاولت سحر أهدافها ومطامحها برفع شعار التأييد المطلق لقضية فلسطين التى أصبحت – كما صارت – قضية المصير الفارسى والعربى معا . .

ومن المؤسف أن موقف العراق الرسمى من قضية فلسطين واستغلالها الزائف لم يتبدل فى جوهره منذ البداية ، وإن تبدل فى شعاراته . . فلقد كان الحكم العراقى فى عهد قاسم يتنازل قضية فلسطين فى ترف ويأوى الخوارج فى محيطها اللجب رغم الخامة الشعبية العراقية . . ومن أجل ذلك دخل حرب فلسطين

الفريق أحمد بدوى : مصر سوف تدافع عن أية دولة عربية تتعرض للعدوان .

حافظ الأسد وعملاء يرقصون وسط الدبان .

كانت العراق لعهد صدام حسين واحمد حسن البكر تعتزل مجال العمل فى النزاع العربى الاسرائيلى بحجة المعارضة لجهود السلام المصرية .

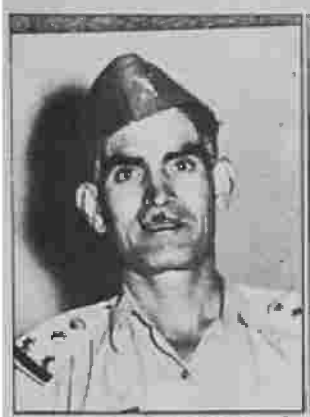

كان عبد الكريم قاسم فى ١٩٦١ يهدد الكويت ويعتزل العرب .

عام ١٩٤٨ دخولاً رمزيا تابعا للجيش الأردنى ليشيا من بعد فى الحرية العربية .

وعارض معاهدة الدفاع العربى المشترك منذ عام ١٩٥٠ إلى أن انضم إلى حلف بغداد عام ١٩٥٥ ، ولم تجد الوساطة والشفاعة من ثورة ١٩٥٢ المصرية العربية فى بداية عهدها . ولم تجد رحلات المرحوم صلاح سالم إلى « سرهنك » العراقية لإثناء الحكومة العراقية عن عزمها الانضمام إلى الاحلاف العسكرية الأجنبية والتخلى عن الحلف العربى . ولم تعلن مصر الحرب على حكومة العراق لخالفة الشرعية العربية ، ولم تفرض عليها مقاطعة رغم الإجماع العربى على تأييد الموقف المصرى . إنما رعت للأخوة حقوقها وعملت فى حكمة ومثابرة من اجل المصالح العليا المشتركة إلى أن سقط حلف بغداد بثورة تموز (يوليو) لعام ١٩٥٨ . ومثل الثورة ظل العراق الرحمى يعيش بقضية فلسطين . ويتخذها ستارا لأهداف ومطامع خاصة .

وكانت الحكومة العراقية ، كما أشرنا ، تنهج نهج المصالحة والتعاون العسكرى والاقتصادى مع جاراتها غير العربيات . فلما جاءت الثورة لجأت إلى أسلوب التحدى والخلاف ، وكان ذلك احياء للخلافات الإيرانية العراقية خاصة ، وللخلافات الإسلامية العربية عامة . ومن أجلها أيدت إيران وتركيا إسرائيل ضد العرب ، وأقامتا العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية وبعض العسكرية معها .

□ □ وفى هذا الجو أيدت ايران وإسرائيل أكراد العراق ، وشجعتهم على المطالبة بالاستقلال أو الحكم الذاتى . وتناست إيران فى هذه الإثارة مالقد تؤدى إليه من تحقيق الأمانى الكردية . . وهى تستهدف إقامة دولة تضم الأفراد المتجمعين فى إقليمهم الجبلى . المتد فى الاتحاد السوفيتى وإيران وتركيا والعراق . . وهو اقليم واسع تبلغ مساحته ١٩١,٦٩٠ كم٢ . ونصت معاهدة سيفر لعام ١٩٢١ على إقامة دولة كردية فيه ، وإن لم ير هذا القرار النور بسبب الأوضاع الإقليمية والدولية ، ورغم الثورات الكردية المتلاحقة منذ عام ١٩٢٥ .

وكان عبد الكريم قاسم فى عام ١٩٦١ يهدد الكويت ، ويعتزل العرب ، ويقيم حينا فى دار وزارة الدفاع ببغداد ، ويختفى قبل نهار الثورة العراقية عليه . . ومع ذلك كان يحفظ فى خزانة بمكتبة الأوسمة والنياشين ومظاهر الاحتفال بتحرير فلسطين الذى يعد ليومه المشهود إعداد والميا

وكانت العراق لعهد أحمد حسن البكر وصدام حسين تعتزل مجال العمل فى النزاع العربى الإسرائيلى منذ نكبة ١٩٦٧ بحجة المعارضة لجهود السلام العادل المصرية وقرار مجلس الأمن المعروف برقم ٢٤٢ . . ولكن النزاع العراق الإيرانى ، وقوة إيران العسكرية لعهد الشاه دفعا الرئيس العراقى إلى حضور قمة الرباط العربية فى أكتوبر ١٩٧٤ . . وأعلن التدخل عن نطرقه ، والمساهمة بمبلغ مائة مليون دولار لدعم دول المواجهة العربية : مصر وسورية والأردن ، ومنظمة التحرير الفلسطينية : ثم فاجأ رؤساء الدول العربية بطلب الوساطة بينه وبين شاه ايران . . وبذل الرئيس السادات والملكان فيصل بن عبد العزيز والحسن الثانى جهودهم . . وانتهت بتوقيع ميثاق العراق الإيرانى بالجزائر ، بعد جهود إضافية من الرئيس الجزائرى الراحل هوارى بومدين ، اثناء اجتماع القمة البترولية فى ٦ مارس ١٩٧٥ . . وهو الاتفاق الذى أعلنت الحكومة العراقية إلغاءه قبل نشوب الحرب الحالية . . ومع ذلك لم تزد الحكومة العراقية المساعدة التى وعدت بها فى قمة الرباط لعرب أخرى أبعد ماتكون عن قضية فلسطين .

وكانت الحكومة العراقية تعتزل حركة الرافضين العرب التى قلت عاما كاملا معظمة عمل ليبيا وسورية والجزائر واليمن الديموقراطية . . ومن أجل النزاع العراق الإيرانى وخشية التهديد الشيعى من ايران للعراق ، انضمت إلى حركة الرفض العربية ، وورطت الدول العربية فيها بحجة المقاومة لتهديدات الخمينى ، كما أغرت المتشعين طلاب المال بالانضمام إليها . . والتزمت لأول مرة بمبلغ ٥٣٠ مليون دولار تؤديها ولاتختلف عن أدائها وذلك رغم النزاعات المتجددة بينها وبين الرافضين الأولين فى اعقاب قمة بغداد فى نوفمبر ١٩٧٨ . .

□ □ واليوم والحرب دائرة الرحى بين العراق وايران . والتحليلات تترى والأخطار تزداد ظلمة وكثافة – يحق لنا الإشارة الوجيزة إلى ما يأتى :

١ – إن كل عربى يؤيد تحرير الأراضى العراقية المحتلة فى رأى العراق منذ عام ١٩٧٥ كما يؤيد تحرير اخر العربية الاسترليجية فى مدخل مضيق هرمز . وهى أبو موسى وطنب الكبرى والصغرى التى احتلتها حكومة ايران فى عام ١٩٧١ . وزادت حكومة الخمينى تشبثا بها ومدت نهيدانها ومغامراتها إلى منطقة الخليج وشب الجزيرة العربية . . لكن اختيار الوقت الملائم ، والتقدير للأخطار الدولية وقضية فلسطين ومصالح الأمن العربى المشترك – كل ذلك كان يقتضى بعض التريث ، وبلاش الكوارث التى نزلت وتنزل بالعراق وايران معا ، وتنذر المنطقة العربية كلها .

٢ – إن هذه الحرب قد اضرت بقضية فلسطين . وأباحت لإسرائيل أن تكرر من جديد انقطاع الصلة بين قضية الطاقة الدولية وقضية النزاع العربى الإسرائيلى . . لمخاطر الطاقة – كما نزعم – تكمن فى النزاعات بين الدول العربية ، وفيما بينها وبين الدول الاسلامية . . وهى النزاعات التى تمكن للاتحاد السوفيتى من تنفيذ مخططه فى أفغانستان وايران ومنطقة الخليج والقرن الأفريقى ومابعده .

٣ – إن هذه الحرب قد كرست الشرق العربى الذى بدأته ليبيا وسورية فى خريف عام ١٩٧٧ ، وتبنته العراق ووسعته فى خريف ١٩٧٨ وقد أصبح العالم العربى ابتداء من مصر حتى جيبوتى يقف على وجه العموم فى صف الدعوة إلى وقف القتال وتسوية النزاع بالوسائل السلمية . . ولايشذ عنه فى ذلك وقف تأييد إيران ضد العراق عسكريا أوسياسيا سوى سورية وليبيا والجزائر . . ولم يعد من مجال لعزل نصف الأمة العربية المتمم فى عشرين دولة عن نصفها الآخر المتجمع فى مصر العربية وخاصة بعد أن دعمت مصر دورها الوطنى والفلسطينى والعربى والإسلامى والدولى ، وأصبحت بحق جزيرة الحرية والديموقراطية والأمن فى الشرق الأوسط المشتعل . .

٤ – أن الحديث عن زعامة العراق للمنطقة الخليجية حديث خرافة . . فقد دمرت الحرب إيران والعراق معا . . وخربت مؤسساتها البترولية التى صرفت عليها عشرات البلايين ، وكان لعاب الدول المتقدمة – بل التامية – يسيل على مثلها . . وستحتاجان إلى سنوات طويلة للشفاء من المرض العضال إن كتب لها الشفاء منه وحديث الزعامة العراقية بمحال الحقائق التاريخية والجغرافية والسياسية جميعا . .

٥ – إن هذه الحرب قد أعادت العرب والمسلمين الى الجاهلية الأولى وإلى حديث الفجوس والفرس . . كما ذكرت العالم بأيام البرامكة والرشيد التى لدغت لاسيار دولة الخلافة الاسلامية وتمزق العالم العربى والإسلامى . . وكذلك أظهرت عجز الجامعة نصف العربية فى تونس والمؤتمر الإسلامى فى مكة وحركة عدم الانحياز فى هافانا والأمم المتحدة جميعا . ومهدت للتدخل الأجنبى فى المنطقة ، واتساع الصراع الدولى فيها . .

● ● ●

ومع ذلك كله فليس من المستبعد أن تستعيد جمهرة الدول العربية قوتها التى تبددت لها فى حرب أكتوبر المجيدة .

وكثيرا ما أسفرت الحروب وهزائمها وخسائرها عن إنجازات وطنية ولولا حروب نابليون وهزيمة ووترلو عام ١٨١٥ ماكان استقرار الثورة الفرنسية فى أغلبها بعد الثورات المضادة المتلاحقة عليها . . ولولا هزيمة الروس فى الحرب العالمية الأولى ماكان تجمعهم عام ١٩١٧ . . ولولا هزيمة مصر فى عام ١٩٦٧ ماكان عبورها العظيم بوطنها وأمتها فى عام ١٩٧٣ . . □